

(١٦)

نهاية الحاكم بن المعز الفاطمي

في سنة ٤١١هـ عدم الحاكم بمصر؛ وذلك أنه لما كان ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال فقد الحاكم بن المعز الفاطمي صاحب مصر، فاستبشر المؤمنون والمسلمون بذلك؛ وذلك لأنه كان جبّاراً عنيدا، وشيطانا مريدا، ولنذكر شيئا من صفاته القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاه الله.

كان كثر التَّلَوُّن في أفعاله وأحكامه وأقواله جائزا، وقد كان يروم أن يدعي الألوهية كما ادّعاها فرعون؛ فكان قد أمر الرّعيّة إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفاً؛ إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه؛ فعل ذلك في سائر ممالكه؛ حتى في الحرمين الشّريفيين، وكان قد أمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند كذره خروا سجدا له، حتى إنه ليسجد بسجودهم مَنْ في الأسواق من الرّعاع وغيرهم ممن كان لا يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السُّجودَ لله في يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم، وأمر في وقت لأهل الكتّابين بالدُّخول في دين الإسلام كرهاً، ثم أذن لهم في العودة إلى دينهم، وخرّب كنائسهم ثم عمّرهما، وخرّب القمامة ثم أعادها، وابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وأخربها، وألزم الناس بغلق الأسواق نهاراً، وفتحها ليلا، فامتثلوا ذلك دهرًا طويلاً، حتى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة في أثناء

النهار فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟ فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول.

وكلُّ هذا تغييرٌ للرُّسوم، واختبار لطاعة العامة له؛ ليرقى في ذلك إلى ما هو أشدَّ وأعظم منه، وقد كان يعمل الحسبة بنفسه؛ فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له— وكان لا يركب إلا حمرا؛ فمن وجده قد غش في معيشة أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن وقطع شجر الأعناب حتى لا يتخذ الناس منها خمرا، ومنعهم من طبخ الملوخية، وأشياء من الرعونات التي من أحسنها منع النساء من الخروج، وكرهة الخمر، وكانت العامة تبغضه كثيرا، ويكتبون له الأوراق بالشتيمة البالغة له ولأسلافه في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد غيظا وحنقا عليهم، حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها فرأى ما فيها، فأغضبه ذلك جدا، فأمر بقتل المرأة، فلما تحققها من ورق ازداد غيظا على غيظه، ثم لما وصل إلى القاهرة أمر السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا فامتثلوا ما أمرهم به، فقاتلهم أهل مصر قتالا شديدا ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، وهو في

كل يوم - قَبَّحه الله - يخرج فيقف من بعيد وينظر ويكي ويقول: من أمر هؤلاء العبيد بهذا؟ ثم اجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف وصاروا إلى الله عز وجل، واستغاثوا به، فرق لهم التُّرك والمشاركة وانحازوا إليهم، وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم، وتفاقم الحال جدا، ثم ركب الحاكم لعنه الله ففصل بين الفريقين، وكفَّ العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل مما فعله العبيد وأنهم ارتكبوا ذلك من غير علمه وإذنه، وكان ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك في الباطن، وما انجلى الأمر حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونُهب قريب من نصفها، وسبيت نساء وبنات كثيرة، وفعل معهن الفواحش والمنكرات، حتى إن منهن من قتلت نفسها خوفا من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبي لهم من النساء والحريم.

قال ابن الجوزي: ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عنَّ له أن يدَّعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون يا واحد يا أحد يا محبي يا مميت قبحهم الله جميعا.

صفة مقتله:

كان قد تعدَّى شرُّه إلى الناس كلِّهم حتى إلى أخته، وكان يتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فتبرمت منه، وعملت على قتله، فراسلت أكبر الأمراء، أميرا يقال له ابن دواس، فتوافقت هي وهو على قتله ودماره، وتواطأ على ذلك، فجهز من عنده عبيدين أسودين شهمين، وقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا

في جبل المقطم، ففي تلك الليلة يكون الحاكم هناك في الليل لينظر في النجوم، وليس معه أحد إلا ركابي وصبي، فاقتلاه واقتلاه معه، واتفق الحال على ذلك. فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم لأمه: علي في هذه الليلة قطع عظيم، فإن نجوت منه عمرت نحواً من ثمانين سنة، ومع هذا فانقلي حواصلي إليك؛ فإن أخوف ما أخاف عليك من أختي، وأخوف ما أخاف على نفسي منها، فنقل حواصله إلى أمه، وكان له في صناديق قريب من ثلاثمائة ألف دينار، وجواهر أخر، فقالت له أمه: يا مولانا إذا كان الأمر كما تقول فارحمي ولا تركب في ليلتك هذه إلى موضع، وكان يجبها. فقال: أفعل، وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر، فنام إلى قريب من ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال إن لم أركب الليلة فاضت نفسي، فنار فركب فرسا وصحبه صبي وركابي، وصعد الجبل المقطم فاستقبله ذاك العبدان فأنزلاه عن مركوبه، وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه، فأتيا به مولاها ابن دواس، فحمله إلى أخته فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير وقد أطلعت على الحيلة، فبايعوا لولد الحاكم أبي الحسن علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وكان بدمشق، فاستدعت به وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لي: إنه يغيب عنكم سبعة أيام ثم يعود، فاطمأن الناس، وجعلت ترسل ركابين إلى الجبل فيصعدونه، ثم يرجعون فيقولون تركناه في الموضع الفلاني، ويقول الذين بعدهم لأمه: تركناه في موضع كذا وكذا. حتى اطمأن الناس وقدم ابن أخيها واستصحب معه من دمشق ألف ألف دينار، وألف ألف

درهم، فحين وصل ألبسته تاج جد أبيه المعز، وحلة عظيمة، وأجلسته على السرير، وبايعه الأمراء والرؤساء وأطلق لهم الأموال، وخلعت على ابن دواس خلعة سنوية هائلة، وعملت عزاء أخيها الحاكم ثلاثة أيام، ثم أرسلت إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم وقوفا في خدمته، ثم يقولوا له في بعض الأيام: أنت قاتل مولانا، ثم يهبونه بسيوفهم، ففعلوا وقويت حرمتها وثبتت دولتها. وقد كان عمر الحاكم يوم قتل سبعا وثلاثين سنة، ومدة ملكه من ذلك خمسا وعشرين سنة.